مقدمـــــــــــــة

حياة الفاتح وادارته

ولد السلطان محمد الفاتح بأدرنه ليلة السبت الموافق السابع من رجب سنة ٨٣٣ ثلاث وثلاثين وثمانمائة هجرية(١) وهو نجل السلطان مراد الثانى من أعظم سلاطين آل عثمان وحفيد السلطان محمد چلبي الأول مجدد بنيان الدولة العثمانية ومنشئها الثانى بعد نكبة تيمورلنك التى منيت بها البلاد عقب هزيمة بايزيد الأول فى معركة أنقره . والدته السلطانه خديجه عليمة(٢) كريمة

(١) اختلفت روايات المؤرخين فى تاريخ ميلاد محمد الفاتح فى سنتة ويومه فأرخ صاحب الشقائق ميلاده فى سنة ٨٣٥هـ ، وأرخه عالى مؤلف كنه الأخبار فى ٧ رجب سنة ٨٣٤هـ ، وأثمار التواريخ فى ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ ، واعتمد المؤرخ جودت (باشا) من بين هذه الروايات التاريخ الذى اخترناه ويؤيده ماضبطه أكثر المؤرخين من تاريخ جلوسه ومدة عمره .

(٢) وكذلك تضاربت أقوالهم فى والدته : قال بعض المؤرخين مثل هامر انه ولد من جارية ولم يذكر اسمها ، ورواية أخرى تقول : والدته سيدة اسمها « هما » فالصحيح هو الذى اخترناه فى المتن استناداً الى بعض الدلائل والقرائن ، ويرى الرأى نفسه بعض مؤرخى الترك مثل احمد رفيق (بك) فى كتابه المسمى « الترك امام بيزانس » .

والامر المحقق ان والدة الفاتح سيدة مسلمة ، ومن الغريب ادعاء كونها مسيحية استناداً الى «فرمان» مؤرخ سنة ٨٦٣ هـ مزعوم الصدور من الفاتح ومشتمل على العبارة الآتية : « سيدة الخواتين(*) المسيحية والدتى حالا السيدة دسپينا » ويدل على عدم صحة هذا الادعاء أمران :

(*) جمع خاتون ومعناها سيدة محترمة كبيرة المقام .

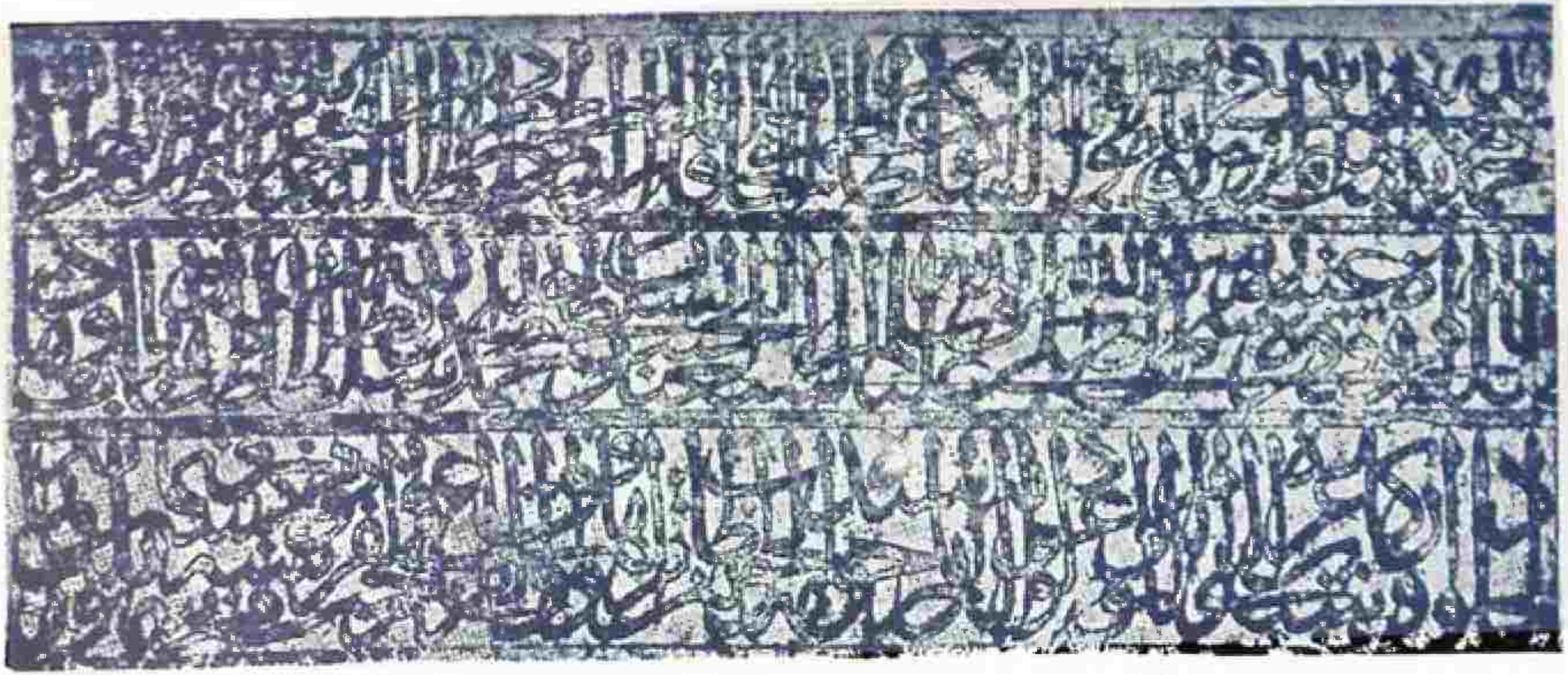

الكتابة العربية التاريخية على باب ضريح والدة الفاتح فى بروسه

أولا — ان طغراء [= طرة] هذا الفرمان ليست لمحمد الفاتح بيقين .

ثانيا — ان والدة الفاتح توفيت الى رحمة الله تعالى قبل سنة ٨٥٣ هـ اى قبل تاريخ صدور الفرمان المزعوم بأكثر من عشر سنين ودفنت بمدينة بروسه العاصمة الاولى للدولة العثمانية وضريحها هناك فى حى « مرادية » وقد كتبت على باب الضريح العبارة العربية الآتية فى ثلاثة أسطر :

السطر الأول : « الحمد لله بنيت هـذه التربة المنورة فى أيام مولانا السلطان الاعظم والخان المعظم السلطان بن السلطان مراد خان بن محمد بن بايزيد خان خلد الله

السطر الثانى : « ملـكه بأمر ولده وقرة عينه سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم السيد النجيب السلطان محمد چلبي اربط الله أطناب سلطان دولته بأوتاد

السطر الثالث : « الخلود وشيد أركان عزه إلى اليوم الموعود لوالدته المرحومة سيدة الخواتين طاب ثراها . ووافق الفراغ فى رجب الفرد من شهور سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة » .

يفهم من هذه الـكتابة التاريخية التى لا يتطرق الى صحتها أى شك ، فهماً قاطعا مبلغ ضعف الروايات القائلة بأن والدة الفاتح كانت مسـيحية أو فرنسية أليس كذلك ؟

قال هامر حين ذكر المبانى القائمة حول مسجد الفاتح المعروف باسمه : « هناك حول المسجد وفى وسط دائرة تبعد عنه قليلا تشاهد مجموعة مبان تتألف من سبيل وحمامات ودار كتب ومدرسة للحديث وحوش مشتمل على قاعة وضريح وضريح السلطانة عليمة والدة الفاتح بالقرب منه » ولـكن نظراً الى كتابة بروسه الآنفة يجب أن يكون هذا غير صحيح .

إسفنديار بك من أسرة الإسفنديارية(١) .

نشأ محمد الفاتح فى بيئة طابعها متانة الخلق ومن جيل سمته صفاء السريرة ونقاؤها . وعنى بتربيته وتعليمه عناية بالغة تحت إشراف أساتذة على مستوى رفيع من العلم والخلق(٢) .

جد فى طلب العلم واكتساب الفضائل الى سن الحادية والعشرين فتفتحت مواهبه الفطرية وتفتق ذهنه واتسع افق تفكيره فأثبت بذلك أنه خليق أن يكون نجلا نجيبا لسلطان عظيم عادل مثل السلطان مراد الثانى كما أثبت أن هذا الشبل من ذاك الاسد . وأجلى دليل على نجابته تلك الحيـــاة النزيهة الرزينة التى أمضاها فى مغنيسيا(٣)

كان محمد الفاتح المتربى تربية اسلامية يدرك انه سيجلس يوماً ما على عرش السلطنة العثمانية ويقدر المزايا والقيم التى تمس الحاجة إليها فى ادارة الدولة

---

(١) الإمارة الاسفنديارية هى احدى الإمارات التى قامت على أطلال الدولة السلجوقية وكانت تحكم مقاطعة قسطمونى ومدينة سينوب على ساحل البحر الاسود وكانوا يزعمون انهم من سلالة خالد بن الوليد رضى الله عنه . وقد الحقت بلادهم بالدولة العثمانية فى عهد المغفور له محمد الفاتح . وآخر أميرمنهم هوالامير «قزل احمد» [احمد الاحمر] .

(٢) أساتذة الفاتح : ابن تمجيد ، المولى الكورانى ، المولى خسرو ، المولى زيرك ، خواجه زاده ، ولى الدين زاده احمد ، خطيب زاده ، حسن السمسونى ، سنان باشا . تلقى عنهم شتى العلوم والمعارف .

(٣) مغنيسا مدينة تاريخية بالأناضول الحقت بالبلاد العثمانية فى عهد السلطان بايزيد الاول الملقب بيلديرم [اى الصاعقة] وأصبحت بعد ذلك مقراً لاقامة الامراء العثمانيين فاقام بها السلطان مراد الثانى ونجله الفاتح والسلطان مراد الثالث وغيرهم . وقد اكتشف معدن «المغنطيس» بجوارها فسمى باسمها .

قاموس الاعلام ج ٦ ص ٤٣٤٨

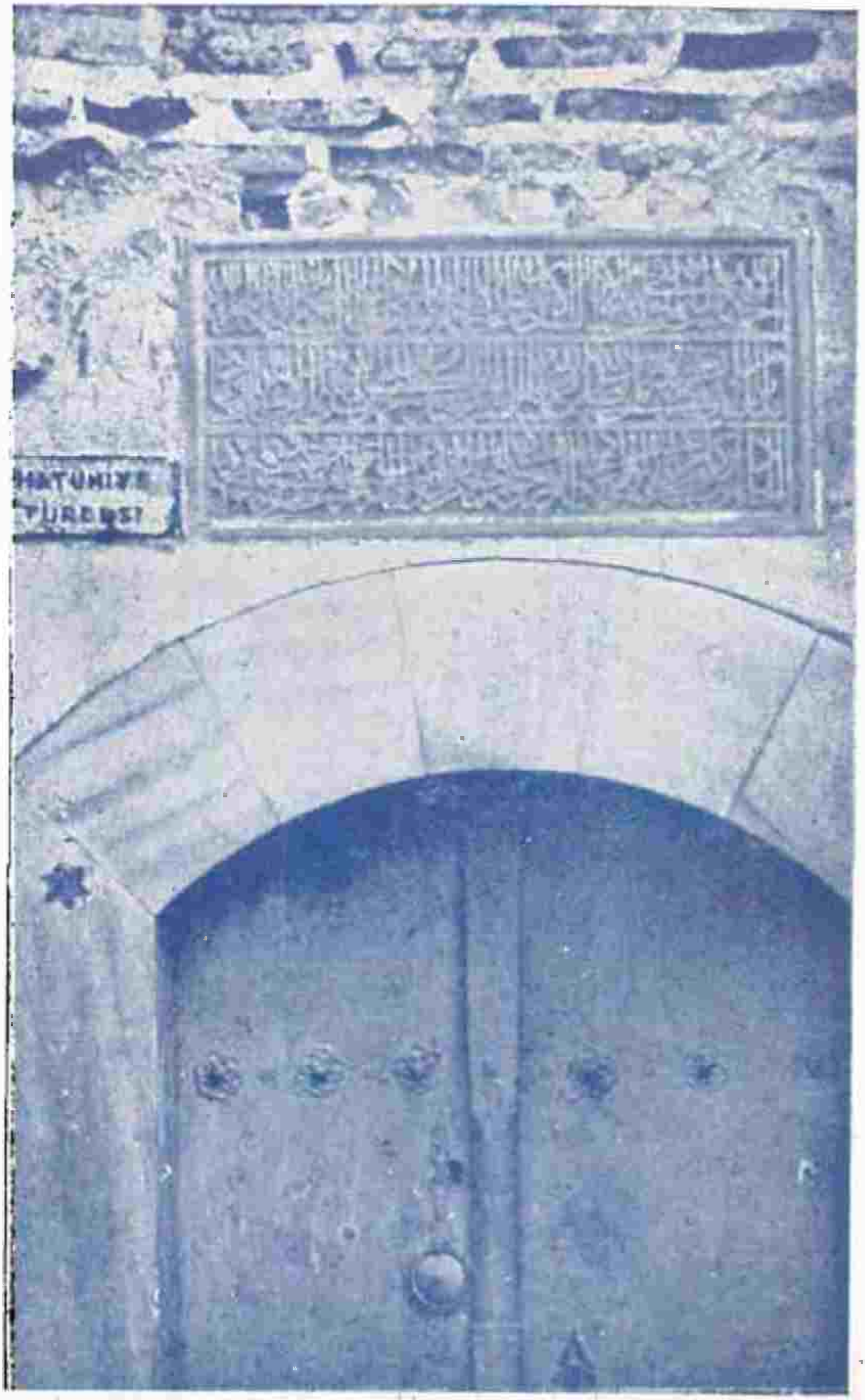

منظر لضريح والدة السلطان محمد الفاتح من الواجهة

ويعمل جاهداً على اكتساب هذه المزايا حتى يكون أهلا لشغل هذا المقام السامى من جميع الوجوه .

وقد آنس منه والده العظيم القدرة على تصريف شئون الدولة والجدارة الذاتية بولاية الحكم . فالقى اليه مقاليده وهو لما يتجاوز سن الثالثة عشرة(١) والا فغير معقول من رجل حكيم بعيد النظر معروف بوطنيته مثل السلطان مراد الثانى أن يترك إدارة دولة عظيمة إلى شاب غر عاجز ، وان فى قيام الفاتح بحسن ادارة الدولة مدة تربو على سنتين مستقلا برأيه وتدبيره ، أوضح دليل على كفاءته الذاتية الممتازة وصدق فراسة والده العظيم فيه .

قد يقول قائل إنه كان يدير شئون الدولة بتوجيهات الوزراء مثل خليل باشا وغيره فنقول كلا . فان الشكاوى التى كانت ترفع الى والده بعدم استماعه لمن حوله من النصحاء والمرشدين ، تدل على انه كان يعمل برأيه .

وأما عودة والده الى الحكم ثانيا فليست من عجز الفاتح وإنما كانت مجرد حيطة اتخذت بسبب الحادث المعروف تفاصيله فى التاريخ وهو هجوم ملك المجر على البلاد العثمانية على رأس جيش صليبى ناقضا العهد وخارقا معاهدة الصلح المعقودة بينه والدولة وذلك بتغرير الكردينال « سيزارينى » مندوب البابا وتفهيمه لملك المجر ان عدم رعاية العهود مع المسلمين لا يعد حنثا ولا نقضا . ففى مثل هذه الظروف الطارئة رأى السلطان مراد ان يعود الى الحكم تلبية لداعى الوطن واستجابة لنــداء الوزراء لكيلا يستغل العدو حداثة سن الجالس على العرش . وبعد أن انتصر على العدو فى موقعة « وارنه »

---

(١) ولا يجوز ادعاء عدم أهليته الشرعية لكونه دون سن الخامسة عشرة حين توليه الحكم فان الخمس عشرة سنة هى الحد الاقصى للبلوغ . ويثبت البلوغ قبل هذه السن فى الغالب .

عاد إلى عزلته ولكنه إزاء بعض الحوادث وفتنة عساكر الإنكشارية والحاح الوزراء لم يجد بدا من العودة الى الحكم .

ولما جلس الفاتح على عرش السلطنة مرة اخرى فى المحرم سنة ٨٥٥هـ كان عالماً وجامعا فى نفسه كل ما يجب توافره فيمن يتولى الحكم من الأوصاف والمزايا(١) .

تلقى الفاتح فى حياة والده العلوم الاسلامية من كبار الأساتذة مع سائر العلوم والمعارف التى تطلبها ادارة الدولة وعرف كيف يتحمل تبعات الحكم وينهض باعباء الملك ودرس سياسة الدولة الداخلية والخارجية .

وكان يعنى بمطالعة كتب التاريخ ويدرس حياة كبار الملوك والأبطال وفتوحاتهم ويقرأ سير القياصرة وقسطنطين الأكبر وتيودوسيوس الكبير

---

(١) يروى المرحوم احمد راسم بك فى تاريخه عن المرحوم نامق كمال بك ما يأتى:
لما تولى والده السلطان مراد الثانى مقاليد الحكم ثانياً عاد محمد الفاتح مخلوعاً الى « مغنيسا » حيث مقر عمله الاول وهو متأثر من الدرس القاسى الذى تلقاه ولا سيما من نفى واهانة زاغنوس باشا(*) ولئن كان هذا الحادث [يعنى خلعه] نقمة لشخص الفاتح فانه يعد نعمة عظمى للدولة فان الخطوب والمحن لهى المدرسة العليا يتلقى فيها الافذاذ ألواناً من دروس التجارب والعبر يتخرجون فيها أكمل ما يكونون دربة واستعداداً لمواجهة الحياة . وكذلك كان هذا البطل فقد أفاد فى الفترة الطويلة التى قضاها مخلوعا ومعتزلا لامن مدرسة الخطوب والمحن فحسب بل تلقى من العلوم والمعارف قسطا وافراً كساه حلة العلم فوق رداء الحكم . ومن آثار هذه العزلة ان تعلم اللغات العربية والفارسية واللاتينية والعبرانية فكان من ثمرة هذه المعرفة الواسعة أن وقف على بواطن الامور ودخائل السياسة فى الشرق والغرب .

(*) كان زاغنوس مخلصاً للفاتح أثيراً لديه ولما خلع من الحكم عزل هو أيضاً من منصبه ونفى الى «باليكسر» وعندما تولى الفاتح الحكم مرة ثانية تضاعف نفوذ المتحدث عنه واصبحت له منزلة سامية وكلمة نافذة .

وتسترعي اهتمامه بصفة خاصة شخصية اسكندر الاكبر المقدوني ويجد في نفسه مزاياه من القوة ومضاء العزم ونفاذ الارادة(١) ،

كان محمد الفاتح عالماً كبيراً في العلوم الشرعية ومحباً لسائر العلوم والفنون كالموسيقى والرسم ويتذوق الادب والشعر ولم يكن يخلو من درس الفلسفة وعلم الفلك بعناية خاصة من حين إلى حين .

وكانت حياته بسيطة جداً ، وكانت هوايته في قراءة الكتب والتدرب على فن القتال ، واذا وجد متسعا من الوقت خرج للصيد والطراد . وكان عزوفاً عن الشهوات والملذات ومجتنباً عن المنكرات وكانت مائدته تمتاز بالبساطة والخلو من الندماء والمشروبات الروحية بأنواعها وكان يكره الاختلاط المبتذل ويعيش في عالم نفسه إما في جو علمي او في ميدان الجهاد والقتال .

كان رحمه الله يجد متعة روحية في النقاش العلمي وهو أكثر من يتلذذ من المناقشات العلمية من بين سلاطين آل عثمان . وبما أنه عالم كبير كما سلفت

= ومن آثار هذه العزلة ايضاً ان اتم دراسة العلوم الشرعية والعقلية ، اصولها وفروعها ، فكان من ثمرة هذه الدراسة الشاملة ان عرف كيف يؤسس دولة متحضرة لم يشاهد نظيرها في تلك العصور . وأحدث تعديلا في القتال وابتكر خططاً وأساليب تعد نواة لما يشاهد الآن من الرقي . . . »

(١) يقول المؤرخ كاريتو وولوس :

« كان السلطان محمد خان وريث دولة عظيمة وصاحب مالا يحصى من النقود والاسلحة والجنود وحاكم اجمل بقعة في قارتي آسيا واوربا واكثرها عمراناً ومع ذلك كله لم يكن يكتفي بما تجمع في يده من هذه القوى المادية بل كان يجول بأفكاره في آفاق أوسع ويتخذ من امثال اسكندر وپومير ويوليوس قيصر قدوة له »

ترجمة كاروليدي نائب ازمير سابقاً

الاشارة إليه فكان يؤثر العلماء ببالغ عطفه وكريم رعايته ويطلب إليهم مناقشة المسائل العلمية بحضرته ، وقد يشترك فى النقاش وفى أثنائه يخلع عن نفسه رداء الحاكم ويلبس شعار العالم ويعمل كعضو علمى فى مجلس علمى . وكان خضر بك . وخواجه زاده ، والمولى خسرو ، والمولى الكورانى ، والمولى زيرك ، وعلى القوشجى ، وعلاء الدين على الفنارى ، وامثالهم من كبار علماء عصره ــ ندماءه فى العلم والفلسفة وجلسائه فى الادب والعرفان ، وكان قد يذكى النقاش ويجد لذة كبيرة من الآراء التى يسفر عنها صدام الافكار فى اثناء البحث الدقيق والنقاش العميق(١) .

كان رحمه الله رقيق القلب معروفاً بالرحمة والشفقة والعفو والصفح ، ولم يكن فى طبعه عنف ولا قسوة ، وحسبنا دليلا على مبلغ عطفه وأريحيته ان نذكر ما أنشأه من المطاعم الخيرية والمستشفيات ودور الضيافة ، وما أغدق على الايتام والارامل من العطايا السخية ونطلع على وقفيات هذه المنشآت الخيرية .

واما ما كان يجنح اليه من الشدة فى ادارته ، وعمله الرسمى فكان من مقتضيات الحالتين الروحية والسياسية السائدتين فى ذاك العهد ، وما سبقه من الاحداث المؤسفة والصدور التى تغلى فيها مراجل الحقد والثأر . ودولة يحيط بها مثل

---

(١) ويحلو لى ان انقل هنا الثناء العاطر الذى اغدقه على الفاتح المؤرخ المصرى العلامة السخاوى مؤلف الضوء اللامع حيث قال فى ترجمة الفاتح « . . . كان ملكا عظيما اقتفى أثر ابيه فى المثابرة على دفع الفرنج بحيث فاقه مع وصفه بمزاحمة العلماء ورغبته فى لقائهم وتعظيم من يرد عليه منهم واهدائه فى كل قليل للمحيوى الكافيه جى مع مكاتباته الفائقة وانخفاضه عن أبيه فى اللذات وله مآثر كثيرة من مدارس وزوايا وجوامع ... » الضوء اللامع ج ١٠ ص ٤٧ .

هذه الظروف لا تمكن ادارتها بغير الحزم ، وليس فى وسع حاكمها ان ينتهج فى ادارته غير سياسة الحزم والشدة .

وأما حادث خنق أخيه الرضيع الامير احمد ، فلا يزال يكتنفه الغموض فى دافعه وفاعله ، فاذا حدث هذا الحادث المحزن بدافع الحرص على سلامة الوطن من ان ينقسم ويضطرب أمره فنسأل الله تعالى العفو والغفران . ومع ما فى هذا الحادث وامثاله من القسوة والفظاعة يعده بعض المتفكرين تضحية كبرى بذلت لصالح الوطن .

وصفوة القول : لا يستطيع منصف ان ينسب الى محمد الفاتح ظلماً أو قسوة غير اعدائه ، حتى الذين دفعهم التعصب الدينى أو القومى إلى التطوع للبحث عن عثراته والعمل على الحط من قدره ، لم يجدوا بالرغم عن كثرة بحثهم ما يشينه فى نظرهم سوى حوادث تعد على اصابع اليد الواحدة طوال حكمه الذى استمر نحو ثلاثين سنة ونيف ، على أن بعض هذه الحوادث له من الأسباب الوجيهة ما يبرر وقوعه والبعض الآخر لا يزال يحتفظ بطابعه السرى لم تكشف عنه الايام النقاب بعد . واذا تصورنا ما يرتكب الآن فى العالم الذى اصطلحوا على تسميته بالعالم المتحضر من أنواع الظلم والأعمال الوحشية باسم العدالة وبواسطة المؤسسات الممثلة لها يتبين لنا ان محمداً الفاتح كم كان عظيماً وكم كان عادلا رحيماً ذا شفقة ورقة .

كان المقياس عند هذا السلطان العظيم فى معرفة اقدار الرجال الذين يعهد اليهم شئون الدولة انما هو الكفاءة واللياقة والاستقامة والعفاف ولم يكن يقيم وزناً لغير هذه المزايا وكان أعظم القيم عنده شأناً العدالة والعلم والعمل والنشاط والنزاهة والاستقامة .

ولم تكن ميزة الفاتح فى مجال الثقافة والجندية ، بل كان صاحب كفاءة فائقة

فى وضع القوانين ، ورجل ادارة من الطراز الأول فقد أنشأ دولة عظيمة واستولى على امبراطوريتين وعشر دول ومائتى مدينة (١)

وضع النظم والقوانين وكفل للشعب التركى النصر فى الخارج والأمن والاستقرار فى الداخل. شهد العالم قبل محمد الفاتح كثيراً من الابطال والفاتحين فتحوا كثيراً من المدن وأنشأوا دولاً ولكن لم يكن لأعمال أحد منهم حظ من الثبات والاستقرار مثلما كان لاعماله .

لم يقصر همه وهمته على فتح البلدان وتوسيع رقعة المملكة فحسب بل فعل كل ما من شأنه أن يضمن لدولة عظيمة بقاءها وامنهامن العدوان واصابه التوفيق فى توفير الاسباب المادية والمعنوية الكفيلة بهذا الغرض .

ادعى بعض مؤرخى الغرب المعاصرين للفاتح أنه لم يكن وثيق الصلة بالدين ، مستدلا بسياسة التسامح التى انتهجها ازاء الكنيسة ، فهذا الزعم مخالف للحقيقة كل المخالفة ، فان محمدا الفاتح كان شديد التمسك بدينه فكانت أمنيته الوحيدة التى ينشدها ويعمل على تحقيقها نشر عقيدة التوحيد والمحافظة على تعاليم الشريعة المحمدية والعمل على رقيها ، وكان يحمد الله تعالى ويشكره على ما يصيبه من توفيقاته الصمدانية فيما يباشره من الأعمال ، ويعطف على علماء الدين ويكرمهم اكراماً لم يسبق له نظير .

واما الامتيازات التى منحها الكنيسة ، فليس فيها اى شيء من المخالفة سواء للأحكام الإسلامية أو للسياسة العادلة التى كان يتوخاها فى حكمه. فقد ذكر فى الفقه الاسلامى الاحكام التى يعامل بها اهل الكتاب من غير المسلمين وانهم يتركون ودينهم مصونة أرواحهم وأموالهم واعراضهم لهم ما للمسلمين

---

(١) امبراطوريتى بيزانس وطرابزون ، ودول الصرب وبوسنه والبانياورومانيا والموره وقرمان وقسطموني وغيرها .

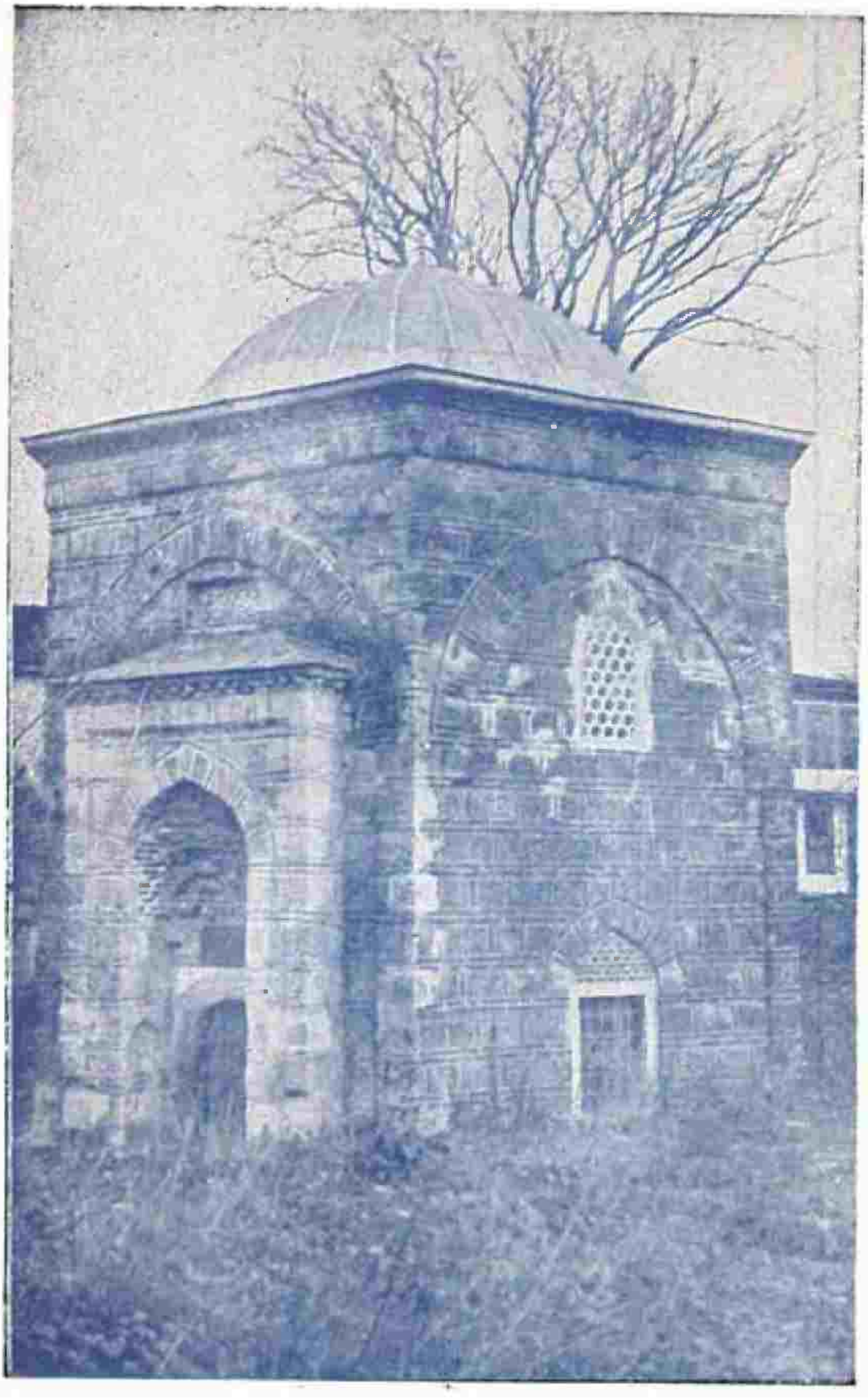

ضريح والدة السلطان محمد الفاتح فى بروسه

وعليهم ما عليهم من الحقوق والواجبات ، فقد عاملهم الفاتح وفقاً للتعاليم الإسلامية وراعى عهد الذمة وطبق عليهم هذه الأحكام فى اليوم الثالث من الفتح . وفى ظل هذا التسامح الكريم عاش المسيحيون والموسويون وغيرهم من الطوائف غير المسلمة القاطنة فى بلادنا ... عاشوا آمنين مطمئنين متمتعين برغد العيش ورفاهية الحال ممارسين جميع حقوقهم ولكنهم مع الاسف الشديد لم يوفوا هذه المعاملة السمحة الكريمة بعض حقها من الشكر .

فاذا نظرنا الى هذا التسامح الاسلامى البالغ منتهى السمو وذكرنا المصير الاليم الذى آل اليه امر المسلمين بالأندلس فى الماضى ، وذكرنا أيضاً ما يجرى الآن فى عصرنا المسمى عصر المدنية من ضروب الاضطهاد التى تعانيها الأقليات والأعمال الوحشية التى تستهدف لها الامم المغلوبة وتقشعر من هولها الابدان ثم قارنا بين هذا وذاك ، وجدنا الفرق شاسعاً والبون بعيداً بعد السماء عن الأرض .

يقول أحمد رفيق (بك) فى كتابه «الغيرة الدينية والحب الوطنى فى سلاطيننا» :

«كانت الغاية المنشودة لسلاطيننا أن يخدموا الاسلام بسيوفهم ويفوزوا بشفاعة الرسول الأكرم فالاحاديث النبوية الواردة فى فضل الجهاد ، والمثوبة الموعود بها المجاهدون ، حفزتهم الى الجهاد ، وكانوا فى غزواتهم وحروبهم يرعون دين عدوهم ويصونون أرواحهم وأموالهم واعراضهم ، وللسلطان محمد الفاتح قصب السبق فى هذا المضمار» .

لم تكن عناية محمد الفاتح بالعلم والثقافة بأقل من عنايته بشئون السياسة والحرب فقد بذ جميع سلاطين آل عثمان فى احترام العلماء ورجال الدين . وكان رحمه الله تعالى يدرك بنافذ بصيرته أن القوة المادية والحربية وحدها لا تكفل للامة السعادة والمجد ، فلابد من دعمها بقوة العلم والايمان والعدل ، ولذلك كان يعمل دائباً ليجعل من وطنه العزيز موطناً للعلم ، ومجمعاً للعلماء والشعراء ، ومركزاً للعدالة .

ولهذا الغرض استقدم العالم الكبير والرياضي الشهير « على القوشجي » من علماء ماوراء النهر مع أفراد اسرته وغمره بفيض من عطفه ورعايته حين وصوله (١). وعمل على تعميم العلم ونشر العدالة فى طول البلاد وعرضها ففتح فيها المكاتب والمدارس حتى فى أصغر قرية منها وأنشأ المحاكم فى المراكز.

كان رحمه الله يقرض الشعر فى عدة لغات ، وله ديوان شعر تركى يسمى « ديوان عونى » (٢) وقد اشرنا اليه فيما سلف وننقل منه القطعة الآتية :

ساقيا مى صون كه بركون لاله زار الدن كيدر
ايريشور فصل خزان باغ وبهار الدن كيدر
غره اولما دلبرا حسن وجماله قيل وفا !
باقى قالماز كيمسه يه نقش ونكار الدن كيدر

ترجمتها

ياساقى الراح ناول الكأس ولسوف يحل يوم تذوى فيه الشقائق
ويحل الخريف ويدبر الربيع وينصرم البستان
وانت ايتها الحسناء الوفاء الوفاء لا تغترى بجمالك
فان الحسن والجمال زائلان لايدومان لاحد

---

(١) وقد وضع الاستاذ الجليل الدكتور سهيل انور كتابا باللغة التركية سماه « على قوشجى : حياتى ومولفاتى » [على القوشجى : حياته ومؤلفاته] تكلم فيه باسهاب عن هذا العالم الكبير .

والكتاب مطبوع بمطبعة كنان باستانبول سنة ١٩٤٨ م

(٢) «عونى» اسم شعرى لمحمد الفاتح وهوما يعرف عند شعراء الترك والفرس بالتخلص او المخلص ، فكان الشاعر يختار اسمه الشعرى من اسمه او من اسم حرفته وبلده وما الى ذلك .

كان يجد لذة كبيرة فى انشاء الشعر والاستماع اليه ويجزل العطايا للشعراء بدون تمييز بين جنسياتهم واوطانهم ، ولم تقف جوائزه عند حدود الوطن بل جاوزتها الى الهند وايران فشملت شعراءهما فانه كان يرسل راتباً شهرياً محترماً الى خواجهٔ جهان شاعر الهند وجامى شاعر ايران .

انشأ فى كل من بروسه وقسطمونى مدارس لتعليم الشعر الغنائى وأجرى راتباً على ثلاثين شاعراً فأضحت المدن الكبرى مجامع الأدباء والشعراء . ومن الشعراء الذين فازوا بعطف الفاتح وتقديره الشاعر حمدى (١) ناظم قصتى يوسف وذليخا وليلى ومجنون على غرار مانظمه جامى . والشاعر شهدى الذى بدأ ينظم التاريخ العثمانى كما نظم الفردوسى تاريخ ايران ولكن عاجلته المنية قبل اتمامه . والكلشنى وقد نظم نحو عشرين الف بيت فى أسلوب « مثنوى » لمولانا جلال الدين الرومى . والهى ملشىٔ زاد المشتاقين ونتائج الارواح . ومن النساء الشاعرات الشاعرة « مهرى » الآماسية (٢) وزيلب القسطمونية .

وليس شعراء عهد الفاتح هم الذين ذكرناهم بل كان هناك مئات من الشعراء غيرهم ، وقد سجل لنا كتب التراجم الخاصة بالشعراء سبعة شعراء تولوا الوزارة فى عهده . ونحن نترك تفصيلات هذا الموضوع الى من يكتب حياته الادبية .

---

(١) هو محمد حمدى بن العالم الكبير والصوفى الشهير الشيخ آق شمس الدين الذى شهد فتح القسطنطينية واكتشف قبر ابى ايوب الانصارى رضى الله عنه

(٢) نسبة الى آماسية مدينة بالأناضول معروفة بجودة تفاحها وهى « خرشنة » الوارد ذكرها فى قصيدة المتنبى فى مدح سيف الدولة :

حتى أقام على أرباض خرشنة — تشقى به الروم والصلبان والبيع

درج محمد الفاتح منذ صباه الباكر على اشباع نهمه من العلم والاستزادة من مختلف الثقافات وقد اختار من العلماء البارزين «خواجه زاده» (١) و«ابن الخطيب» (٢) مدرسين له وقرأ عليهما ما شاء من كتب السلف وأطلع أيضاً على مؤلفات العلماء المعاصرين وبحث آراءهم بدقة ونقدها نقداً علمياً.

---

(١) هو مصطفى مصلح الدين بن يوسف بن صالح البرسوى الشهير بخواجه زاده من كبار العلماء الذين أنجبهم الشعب التركي وموضع فخرهم قرأ عندالمولى محمد آيا ثلوغ [وهو من علماء عهد السلطان مراد الثانى وكان يعرف بچلبي آيا ثلوغ] الأصلين والمعانى والبيان ثم وصل إلى خضر بك وهو مدرس بالمدرسة السلطانية فى بروسه فعين مساعداً [معيدا] له فاتم دراسته . وكان خضر بك يجله ويقدره تقديراً عظيما ومتى حدثت مشكلة علمية كان يقول : « ارجعوا الى العقل السليم » يعنى به صاحب الترجمة وقد فاز رحمه الله بتقدير الفاتح وعطفه فى ظروف مختلفة ومناسبات شتى فاتخذه مدرساً لنفسه واسند اليه اعمالا هامة وعينه قاضى عسكر الأناضول بعد المولى خسرو ثم قاضى استانبول وولى التدريس فى مدارس مختلفة . والف بامر السلطان كتابه القيم « تهافت الفلاسفة » فقوبل بتقدير واعجاب فى كل مكان وله مؤلفات قيمة. توفى الى رحمة الله تعالى سنة ٨٩٣ هجرية ودفن فى ضريح بالقرب من مدرسة امير سلطان فى بروسه .

(٢) هو محمد محي الدين الشهير بابن الخطيب قرأ على والده المولى تاج الدين ابراهيم المدفون بمدينة «إزنيق» والطوسى وخضر بك . كان عالماً كبيراً طلق اللسان جرىء الجنان قوياً على المحاورة فصيحاً عند المباحثة والمناقشة وكان عنده من الغرور وخشونة الطبع ما لا يتفق وما يجب ان يتصف به اهل العلم من التواضع ولين الجانب حتى انه بسبب غروره قد افتى باهدار دم عالم جليل مثل المولى لطفى التوقاتى الآتى ترجمته . وله مؤلفات قيمة . وقد شرع فى التعليق على شرح الوقاية لصدر الشريعة واميتمه . مات سنة ٩٠١ ه ودفن بالقرب من ضريح على القوشجى بمقبرة ابى ايوب الانصارى باستانبول.

كانت له مكتبة خاصة تحتوى كتباً قيمة جمعها وانتقاها باهتمام وعناية ، وعين المولى لطفى (١) اميناً لها بعض مدة . وكان رحمه الله يعنى بالعلم والتعليم والمعلمين والطلبة عناية بالغة الغاية ويهيئ لهم جميع وسائل التعليم ويوفر للطلبة أسباب المعيشة فى اثناء الطلب لكيلا تشغلهم مطالب الحياة عن التفرغ للعلم .

عهد الى وزيره الأول محمود (باشا) (٢) اصلاح نظام التعليم وكان محمود

---

(١) هو المولى لطف الله التوقاتى من كبار علماء الرياضة قرأ على سنان (باشا) وتلقى الرياضة والهيأة من على القوشجى حين وصوله الى استانبول ودخل فى خدمة السلطان محمد الفاتح بواسطة سنان (باشا) فاشتغل اميناً لمكتبته الخاصة بعض مدة ولما نفى سنان (باشا) الى سفرحصار سافر معه . وكان رحمه الله لايبالى بتقاليد المجتمع يرسل نفسه على سجيتها ويطلق لسانه على طبيعته وكأنما يقول كما قال المتنبى من قبل :

وهان فما ابالى بالرزايا   لانى ما انتفعت بأن أبالى

وغلب عليه روح المزاح والدعابة وكانت تصل دعابته الى درجة التجريح والايلام فى بعض الاحيان وله دعابة مع الفاتح معروفة ذكرها سهى الادرنه وى فى تذكرته . ولما توفى الفاتح لقى من ابنه السلطان بايزيد العطف والرعاية فعينه مدرساً فى بعض المدارس ولكثرة فضائله حسده اقرانه ولاطالة لسانه اتهموه بالالحاد والزندقة فاعدم سنة ٩٠٠هـ بفتوى ابن الخطيب المتقدم ذكره . فوقعت جملة « لقد مت شهيداً » تاريخاً لوفاته بحساب الجمل . وله حاشية على شرح المطالع والمفتاح للسيد وشرح جزءاً من البخارى والف رسائل كثيرة فى موضوعات شتى . ومدفون بمقبرة ابى ايوب الانصارى فى استانبول .

(٢) محمود (باشا) من اصل كرواتى [وفى رواية : ابوه رومى وامه من ايليريا] وقع اسيراً فى يد محمد آغا من رجال القصر فى احدى الغزوات فأخذ الى القصر السلطانى لما بدا عليه من مخايل النبوغ والذكاء والحق بدائرة الخزينة السلطانية ثم بخدمة الأمير محمد [السلطان محمد الفاتح] تربى فى القصر تربية عالية فحصل على قسط وافر من العلوم والفنون ولما جلس الفاتح على عرش السلطنة نصبه رئيساً =

(باشا) عالماً أديباً شاعرا وفى مركز يسمح له بالنهوض بهذه المهمة، فأنشأ فى المدن الكبيرة مدارس عالية الى جانب المكاتب الموجودة فى سائر المدن والقرى
وسنقدم فى الفصول الآتية بياناً عن هذه المدارس ومناهج الدراسة فيها (١) وكان محمد الفاتح يختار بنفسه العلماء الذين يتولون التدريس فى هذه

= لعساكر الانكشارية ثم والياً على ايالة الروملى وفى سنة ٨٥٧هـ ولاه الصدارة العظمى [= رياسة الوزراء] خلفاً لخليل باشا فقام بحسن ادارة شئون الدولة مدة خمسة عشر عاما وفى خلال هذه المدة قد اشترك فى كثير من المعارك تارة بمعية السلطان واخرى قائداً عاما . وتمكن من الحاق بلاد الهرسك بالبلاد العثمانية وانتصر على المجر وانقذ « لوفجه » وغيرها من المدن من يد العدو واستولى على جزيرة «مدللى» ثم عزل بسعاية محمد (باشا) الروم سنة ٨٧٢هـ ونصب على سنجق «غاليبولى» وعهدت اليه فى سنة ٨٧٣هـ مهمة الاستيلاء على «اگريبوز» (*) فنجح فى مهمته . وابلى بلاء حسنا فى الحملة التى جردت على حسن الطويل فكوفىء بان عين صدراً اعظم مرة ثانية ثم عزل لتهم عزيت اليه ونفى - فى رواية - الى « خاص كوى » بالقرب من ادرنه فأقام بها الى ان وافاه الاجل سنة ٨٧٩ هـ وهناك رواية اخرى بانه اعدم .

كان عالما عاقلا سياسيا محنكاً شجاعا مقداما محبا للعلم والعلماء ، وقد ألف باسمه كثير من الكتب العلمية وله مسجد عظيم ومدرسة وحمام فى الحى المعروف باسمه باستانبول . وكذلك له مسجد ومدرسة فى « صوفيه » ومنشآت خيرية كثيرة من مساجد ومكاتب وقناطر فى بعض المدن التى فتحها فى الاناضول والروملى ولما استولى على « اگريبوز » منح رتبة القائد البحرى من الدرجة الثالثة .

(١) المفهوم من كتب التاريخ ومن رحلة ابن بطوطة ان سوق العلم فى الاناضول كانت رائجة جداً سواء فى عهد السلاجقة او فى عهد الامارات التى قامت على اطلالها فكان فى كل قرية مكتب للاطفال كما كان معظم المدن والقرى زاخراً =

(*) اعريبوز

المدارس ويناقشهم فى المواد التى يدرسونها ويسألهم عن المتفوقين من طلبتهم ليكافئهم . جاء فى الشقائق : سأل السلطان محمد الفاتح ذات يوم المولى خسرو قائلا : « من هو أنبغ طلبتك ؟ » فأجاب : محى الدين محمد الشهير بمغنيسازاده وأثنى عليه كثيراً . فكرر السؤال قائلا : « ثم من ؟ » فأعاد المولى خسرو الجواب قائلا : « مغنيسا زاده أيضاً » ، قال الفاتح : هل مغنيسا زاده اثنان حتى رددت على سؤالى بجواب واحد(١) فقال المولى خسرو : كلا يامولاى مغنيسا زاده واحد ، ولكن واحد عدّ بألف . وبناءً على هذه التذكية عينه مدرساً لمدرسة وزيره محمود باشا ثم لمدرسته نفسه ونصبه بعد ذلك قاضى العسكر .

خلاصة القول : ان السلطان محمدا الفاتح بثقافته الرفيعة وشغفه بالعلم وحبه الشديد للحكمة وفق كل التوفيق لتحويل بلده الى منبع العلم وينبوع الحكمة (٢)

= بالمدارس ودور الحفاظ والمؤسسات العلمية . والطلبة الذين يتمون دراستهم فى هذه المدارس كانوا يقصدون الى مراكز علمية كدمشق والقاهرة للاستزادة من العلم والثقافة . وبعد انشاء محمد الفاتح مدارسه الثمان فى استانبول قلت هذه الرحلات العلمية .

(١) ولا يخفى ما فى هذا السؤال والجواب من اللطف والدقة .

(٢) يقول المؤرخ عالى مؤلف كنه الاخبار مامعناه : « كان السلطان محمد خان فاتح القسطنطينية يحترم العلم والعلماء ويشمل برعايته السامية من يرد عليه منهم من بلاد العرب والعجم فقد أنشأ فى القسطنطينية مدارسه الثمان العالية وبها تحولت بلاد الروم الى منبع العلوم والحكمة واغنت طلاب العلم وعشاق المعرفة عن تجشم مشاق الرحلة الى بلاد بعيدة لاستكمال دراستهم وزيادة ثقافتهم ... » ج ١ ص ٣٧

وبعد ان حكم هذا العاهل الكبير نحو ثلاثين سنة حقق فيها من جسام الاعمال ماتضيق به العصور وفتح عهداً جديداً فى العالم، انتقل من استانبول الى «اسكدار» فى اليوم السادس والعشرين من صفر سنة ٨٨٦ هـ على رأس جيش عظيم بالرغم من مرضه ولما وصل الى «گكبوزه» اشتد به المرض فى المكان المسمى «تكور چايرى» فتوجه الى الله توجهاً كلياً بلسانه وقلبه حتى التحق بالرفيق الاعلى. (١)

لم تعلم الجهة التى قصدها المغفور له بسفره هذا فكان من عادته رحمه الله كتمان حركاته العسكرية. وقد وصف عاشق باشا زاده وفاته فى ابيات مؤثرة جداً يفهم منها انه راح ضحية أخطاء(*) الاطباء الذين قاموا بمداواته. وفى الحقيقة ان الذى يقرأ هذا الوصف المؤثر الذى يصف به عاشق باشا زاده وفاة السلطان محمد الفاتح يخالجه الشك فى كون وفاته طبيعياً. ويؤيد هذا الشك ماذكره صاحب الشقائق النعمانية فى ترجمة الطبيب اللارى والطبيب يعقوب اللذين توليا مداواة السلطان فى اثناء مرضه الأخير ونقل ترجمتهما من الشقائق فيما يأتى :

---

(١) ولما بلغ نعيه مصر كتب المؤرخ المصرى ابن اياس يقول :

« وفى ربيع الأول جاءت الاخبار بوفاة السلطان المعظم المفخم المجاهد الغازى ملك الروم وصاحب القسطنطينية العظمى وهو محمد بن مراد بن محمد . . . وكان ملكا جليلا عظيما ساد على بنى عثمان كلهم وانتشر ذكره بالعدل فى سائر الآفاق وحاز الفضل والعلم والعدل والكرم الزائد وسعة المال وكثرة الجيوش والاستيلاء على الاقاليم الكفرية وفتح الكثير من حصونها وقلاعها وكان نائب مملكة الروم فى حياة ابيه ثم استقل به من بعده ومكث به مدة طويلة تزيد عن احدى وثلاثين سنه . . . الخ

بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥

(*) الناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

ابن الرومى

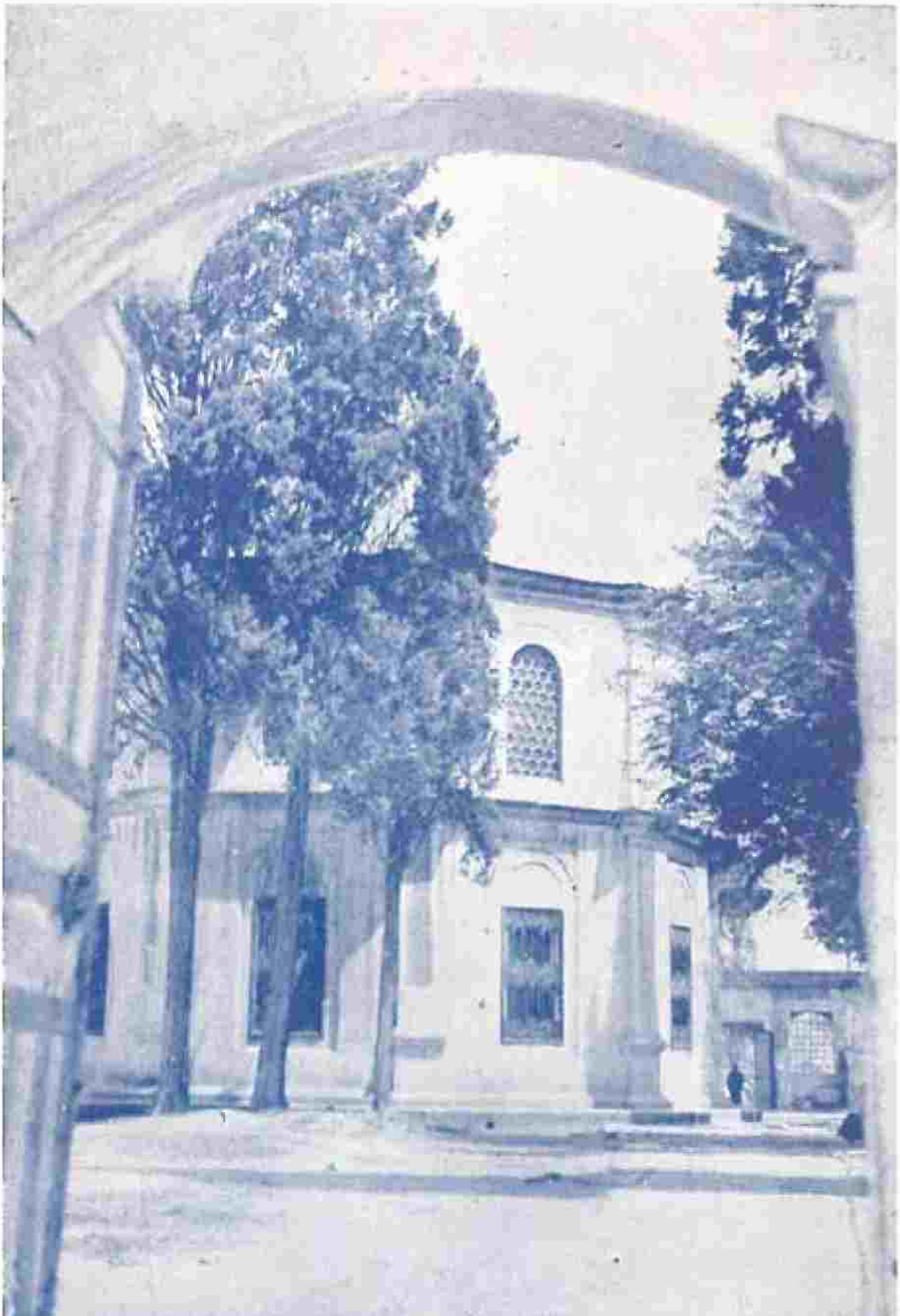

منظر جانبي لضريح السلطان محمد الفاتح

المولى حكيم يعقوب

« العالم العامل يعقوب الحكيم كان طبيباً ماهراً فى الطب غاية المهارة وبذلك تقرب عند السلطان محمد خان وكان يهودياً وجعله السلطان محمد خان حافظاً للدفتر بالديوان العالى وهو اليهودى ثم اسلم واستوزره السلطان محمد خان ولما صار محمد باشا القرمانى وزيراً للسلطان محمد خان حسد واتفق فى ذلك الايام ان مرض السلطان محمد خان فعالجه يعقوب، وذكر محمد باشا عند السلطان الحكيم اللارى ورغب فى الدخول عليه فلما دخل هو عليه عالج خلاف معالجات يعقوب وغيّرها وضعف السلطان محمد خان فاستدعى الحكيم يعقوب ولما رأى الحكيم يعقوب وعرف انه غير قابل العلاج بعد هذا لم يتكلم بشيء وصوب رأى الحكيم اللارى ولم يلبث السلطان إلا قليلا حتى مات اسكنه الله جناته وادخله محل رضوانه »

الحكيم اللارى

« العالم العامل والفاضل الكامل الحكيم العجمى اللارى ارتحل الى بلاد الروم واتصل بخدمة السلطان محمد خان كان ماهراً فى الطب الا انه اخطأ فى متابعة رأى الوزير محمد باشا ومطاوعته هواه فى معالجة السلطان كما حكيناه آنفاً (أى فى ترجمة الطبيب يعقوب) سمعت هذه القصة عند السيد ابراهيم الآماسى المتوطن بجوار مزار ابى ايوب الانصارى »

وهذه النصوص التاريخية تدل على ان محمداً الفاتح مات فى ظروف غامضة ولست ادرى هل يوفق التاريخ لجلاء هذا الغموض وتبيين موقف الوزير محمد باشا القرمانى من هذا الحادث او يظل سرا مكتوماً فى ضمير الغيب؟ والله اعلم.